الحياة الثقافية في مكة المكرمة

في القرن التاسع عشر الميلادي ١٢١٥ - ١٣١٧هـ

تأليف: د. يحيى محمود بن جنيد (الساعاتي)

عرض د. منير محمد سالم*

* أستاذ بجامعة الأزهر.

لم تعرف البشرية ديناً أراد لأتباعه التقدم والسموق الحضاري مثل الدين الإسلامي.. وعلى مر العصور والأزمنة، كان الاهتمام الجلي بالعلوم والمعارف، حتى بلغت الحضارة الإسلامية أوج مجدها، وأضحت مصدر الإشعاع المعرفي والثقافي الذي تنهل الحضارات الأخرى من معينه. وقد شهدت مكة المكرمة على امتداد تاريخها ذلك التأصيل الرصين للعلم متمثلاً في توافر أماكن تلقينه، والاحتفاء به، وانشغال الناس بتعلمه، حتى صارت مكة مقصد العلماء وقبلة المتعلمين، يتواصلون مع ذلك الحبل الروحي المتين؛ فمكة مهبط الوحي، ومهوى أفئدة المسلمين، وقد ارتضاها الله قبلة للعالمين.

وقد صدر كتاب الرياض، العدد (١٠٠)، يحمل بين طياته رصداً لجوانب الثقافة في مكة المكرمة، ويحمل عنوان: «الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي». ويأتي

هذا الكتاب ليسد ثغرة في مجاله. حيث تفتقر المكتبة العربية إلى مؤلفات تبرز الجوانب الثقافية في المجتمع المكي، وتكشف النقاب عن الدور الحضاري الذي أدته مكة المكرمة بوصفها مركزًا ثقافيًا مهمًا ومؤثرًا خلال هذه الحقبة.

يتألف الكتاب من أربعة محاور عالج المؤلف خلالها، وببراعة بالغة، أوجه النشاط الثقافي الذي شهدته مكة المكرمة خلال تلك الحقبة، مستقياً ذلك من منابع أصيلة، ومصادر وثيقة، وروافد متعددة، مما أضفى على الدراسة سحر البيان، وروعة الإتقان.. كما أورد في نهاية الكتاب قائمة بأسماء أعلام مكة في القرن التاسع عشر، وملحقاً فيه نماذج من الكتب المخطوطة والمطبوعة والموقوفة.

مفهوم الثقافة :

بداية يحدد المؤلف مفهوم الثقافة الذي اتخذ مداراً لهذا الكتاب، فيعرفه بأنه: تلك الظواهر المعبرة عن الاحتفاء بالعلم، وكثرة العلماء ، وانتشار وسائل تلقيه، وتوافر أدوات بثه، وبروز تأثيراته في حياة الناس اليومية... وهو بذلك يخرج من حيز التعريف الضيق للثقافة إلى مفهومه الرحب الذي يشتمل على آليات التعليم والتعلم، وتناقل المعارف والعلوم، وهو ما شهدته مكة المكرمة في تلك الحقبة من خلال حلقات الدرس والتعليم في الحرم المكي، والمدارس الرسمية والخاصة، وكثرة العلماء والشعراء والأدباء، الذين أثروا الحياة الثقافية بمؤلفاتهم، إلى جانب الكثير من المكتبات التي كانت تعج بالمؤلفات والمخطوطات؛ فضلاً عن المطبعة التي تأسست خلال هذه الحقبة، وأسهمت في نشر الكتب وإتاحة المعرفة... والمؤلف بذلك يبرز المشهد الثقافي كله في لوحة واحدة تتعاظم مفرداتها كلما أمعنت النظر فيها.

التعليم منابعه ووسائله :

استطاع المؤلف من خلال هذا المحور آن يرصد الحركة التعليمية في مكة المكرمة - خلال حقبة الدراسة - وأن يقف على محتوياتها من خلال الحرم الشريف، الذي يعتبر أول جامعة للعلم في مكة المكرمة، ومن خلال المدارس الرسمية والخاصة التي ساهمت بدور فاعل في إحياء الحركة التعليمية، وبعث النهضة الثقافية، حيث يعتبر التعليم الركيزة الأولى للبناء الحضاري، والأساس الذي يبنى عليه الإحياء الثقافي في كل وقت وحين.

الحرم الشريف ، جامعة للعلم :

يرى المؤلف أن الحرم المكي الشريف يأتي على رأس الهرم التعليمي، حيث كانت ساحاته وأروقته تغص بحلقات العلم التي يتولى التدريس فيها علماء مشاهير من أبناء مكة، ومن مجاورين قدموا من بلدان إسلامية مختلفة، يلقون دروسهم اليومية فيه على طلبة العلم الذين كانوا يتسابقون على الأخذ عن أولئك العلماء والاستفادة من علمهم.

وقد وضع المؤلف من خلال مصادره صورة تفصيلية للدراسة في الحرم مثل أوقات إلقاء المحاضرات وأماكنها، وأنواع المعارف والعلوم التي كانت تدرس فيه، وكذلك أشهر الكتب التي كانت موضوع الدرس... هذا إلى جانب تناوله لتطور وسائل الدراسة، واهتمام أولي الأمر بها، من خلال فرض رواتب للعلماء، والقائمين على التعليم في الحرم الشريف والزوايا التي خصصت لهذا الغرض.

المدارس الرسمية والخاصة :

شهد القرن التاسع عشر الميلادي تأسيس الكثير من المدارس النظامية التي تعنى بتعليم الطلاب من مختلف الأعمار، وذلك وفق أنظمة التعليم المتبعة في

الولايات العثمانية الأخرى. فقد حفلت مكة المكرمة بمدارس رسمية في العصر العثماني، وفي حقبة الدراسة على وجه الخصوص.

واستطاع المؤلف من خلال الوثائق تقسيم مستويات التعليم في تلك الحقبة إلى:

١ - الكتاتيب : وبلغ عددها ثلاثة وثلاثين كتاباً، يدرس فيها ١١٥٠ طالباً.

٢ - المدارس الأولية (الابتدائية) : وأشهرها المدرسة السليمانية والداودية ومدرسة الشهيد محمد باشا.

٣ - مدارس التعليم المتوسط وكانت تعرف بالرشدية.

ويمكن الجزم بأن تعدد المصادر التعليمية مثل المدارس المختلفة العامة والخاصة والكتاتيب؛ فضلاً عن الحرم يدل دلالة واضحة على نشاط الحركة العلمية في ذلك العهد وأن نظم التعليم الحديثة قد دخلت إلى مكة المكرمة في فترة مبكرة، وتأصلت هذه النظم بتنوع المدارس واختلاف المناهج.

أعلام الحركة الثقافية :

يعد العلماء الضلع الثاني في إثراء الحركة الثقافية، وقد حفلت مكة المكرمة بمجموعة كبيرة من العلماء الذين أسهموا بدور فاعل في تدريس العلوم الشرعية والعربية للطلاب، وكذلك قاموا بتأليف مجموعة كبيرة من الكتب في صنوف المعارف المختلفة: فضلاً عن امتلاء الساحة الثقافية بعدد من الشعراء والأدباء وعلماء الفلك والأطباء، الذين أثروا في مسار الحركة الثقافية، وتصحيح مسارها إيجابياً.

وقد حفل القرن التاسع عشر بجملة من العلماء الذين قاموا بالتدريس في الحرم المكي وفي المدارس الرسمية والخاصة، أحصاها المؤلف، ونذكر منهم السيد

بكري بن محمد زين الدين شطا المولود في مكة سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) صاحب كتاب إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين للمليباري، وكذلك السيد علوي بن أحمد السقاف سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).. وغيرهم كثير.

كذلك لم تخل مكة المكرمة في ذلك الوقت من وجود عالمات مميزات كان لهن تأثيرهن على الساحة الثقافية، ولعل أبرزهن فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية التي كانت تعرف بالشيخة الفضيلية، وكذلك خديجة بنت إسحاق الدهلوية، التي كانت تتمتع بثقافة راقية لا تقل عما كان يتحصل عليه العلماء من الرجال في عصرها.

ويرى الكاتب أن وجود العالمتين الفاضلتين في مكة في ذلك الوقت يؤكد أن المرأة كان لها نصيب طيب في نشاطها الثقافي، وأن «ظاهرة» تواجد المرأة على الساحة الثقافية وإتاحة المجال لها للإسهام علمياً في خدمة المجتمع، هي خاصية اشتهرت بها مكة على مدى قرون طويلة.

وإلى جانب العلماء أصحاب المصنفات والتأليف في العلوم الشرعية والعربية، ظهر في مكة المكرمة في تلك الحقبة مجموعة من الشعراء والأدباء، الذين أسهموا في الحياة الثقافية، ومن أشهرهم: عبدالله بن عبدالرحمن سراج، وعبدالله عبدالشكور بن محمد عبدالشكور، وعلي بن عبدالله عبدالشكور بن محمد عبدالشكور، وعلي بن عبدالله عبدالشكور الحنفي ودرويش ريس «العالم الأديب»، وعثمان بن محمد بن أبي بكر الراضي، الذي عد من أبرز شعراء الحجاز في عصره، والذي قال في مكة المكرمة :

لا تنكروا شوقي إلى أمِّ القرى — وتهتكي بين الورى في ذكرها

فأنا ابنها من أهلها ، ورضيعها — من ثديها ، وربيبها في حجرها

وإلى جانب الشعراء لمع في مكة جملة من المؤرخين الذين اهتموا بجوانب من التاريخ الإسلامي، وتراجم الأعلام وتدوين الرحلات، وتركوا مجموعة من المؤلفات نهل منها المؤرخون ودارسو هذا الفن: فضلاً عن العلماء الذين برعوا في العلوم الطبيعية والتطبيقية، مثل الحساب والفلك والطب والصيدلة.

إن امتلاء الساحة الثقافية بذلك الجمع الكبير من العلماء والأدباء والشعراء يدل دلالة واضحة على رقي وارتفاع المستوى الثقافي والعلمي الذي كانت عليه مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي، وهو ما يدعو إلى استنهاض الهمم للبحث في هذا التراث الضخم، وسبر أغواره، حتى تكتمل المعالم الحضارية والثقافية لمكة المكرمة.

الوراقة والنشر :

يذكر المؤلف أن الطباعة قد تأخر دخولها إلى مكة المكرمة حتى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٩٣م، غير أن شغف المكيين بالعلم ونشره، واهتمامهم بالمسألة الثقافية، كان دافعاً لهم في نسخ المخطوطات، ونشر المؤلفات في بلدان عربية أخرى مثل مصر، التي قامت بطباعة مجموعة من كتب علماء الحجاز، منها كتاب فتح المجيد بشرح مختصر الخطيب لمحمد بن عمر بن عبدالمعطي النووي في مطبعة بولاق بالقاهرة، وكتاب السيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زيني دحلان في المطبعة الوهبية بالقاهرة... وفي سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٩٥م نشرت مجموعة رسائل سليمان زهدي الخالدي في مطبع إسماعيل أفندي في إستانبول. وقد أشير في نهاية الكتاب إلى أن حق إعادة الطبع والنشر لهذا الكتاب محفوظة لعثمان شمس الدين بيكه في مكة المكرمة.

وقد عرفت مكة المكرمة الطباعة عندما أسس الوالي العثماني الوزير عثمان نوري باشا الذي عرف بمشروعاته الإصلاحية في الحجاز المطبعة الأميرية التي كانت حجرية ثم تحولت إلى الحروف الطباعية، وبالرغم من صغر حجم هذه المطبعة عند تأسيسها؛ إلا أنها حظيت بعناية فائقة من الدولة العثمانية التي حرصت على تطويرها لتكون مناسبة لطباعة الكتب، وقد طبع في هذه المطبعة حوالي ١٤٦ عنواناً في الفترة من سنة ١٣٠٠هـ إلى ١٣١٧هـ، من بينها: مؤلفات لعلماء مكة أغلبها متون وشروح كانت تستخدم في حلقات التدريس بالمسجد الحرام، كما اهتمت بنشر كتب التراث العربي الإسلامي.

واتسع نشاط علماء مكة، ليشمل إلى جانب التأليف والنشر بالعربية، الترجمة من اللغات الأخرى وإليها. ونشطت المطبعة في طباعة الكتب الجاوية، وركزت عليها نظراً لوجود جالية كبيرة من الجاويين بمكة، وكذلك تصديرها إلى إندونيسيا، حيث كانت تحظى بقبول كبير من طلبة العلم الذين كانوا يكنون احتراماً كبيراً لكل ما يأتيهم من مكة المكرمة.

ونظراً لاتساع حركة التأليف والترجمة والنشر، فقد نشطت تجارة الكتب المخطوطة والمطبوعة، وتوزعت تلك التجارة على نوعين، الأول: شراء الكتب من مصر والهند، وكذلك جلب المخطوطات من خارج مكة، أو شراء ما يعرض منها داخل مكة. والنوع الآخر: الإسهام في نشر بعض الكتب وتمويل طباعتها.. واشتهرت مناطق بعينها من مكة المكرمة في مجال تجارة الكتب، لعل أهمها منطقة باب السلام، وباب الزيارة.. وكانت هذه الأماكن تحفل بنوادر المخطوطات، وأن روادها كانوا يقتنون النفائس من سوق الكتاب فيها.

المكتبات الخاصة والرسمية والأندية الأدبية :

نظراً لأن مكة المكرمة في تلك الحقبة كانت تموج بجملة من المثقفين. تحوي مساكنهم أبرز أدواتهم المعرفية، ومصادرهم الثقافية، وهي: مكتباتهم الخاصة التي كانت تحفل بنوادر الكتب. استطاع المؤلف بجهده أن يرصد جملة من المكتبات الخاصة لعلماء بارزين، ومن أشهر هذه المكتبات: مكتبة علي بن أحمد القباني، ومكتبة العالمة الفاضلة فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية التي وقفت مكتبتها على طلبة العلم..

وإضافة إلى المكتبات الخاصة، كانت هناك مكتبات رسمية ترعاها الدولة العثمانية، بعضها في المدارس، وواحدة منها عامة تفتح أبوابها لطلاب العلم كافة، وقد كانت مكتبة الحرم أهم مكتبات مكة المكرمة، وكانت مقصد العلماء، وموئل طالبي المعرفة.

ولم تنحصر المسألة الثقافية على الكتب والمدارس، بل أصبح الشأن الثقافي هو الهم الأساس الذي يجتمع عليه العلماء والأعلام، وأضحت منازلهم مرفأ ترسو فيه سفن العلماء.. وفي تلك المجالس كان يدور النقاش، ويتم التحاور والتفاعل بين الحضور، ويغرد الشعراء بأعذب قصائدهم، والأدباء بأرق كلماتهم، ولعل هذه الظاهرة الثقافية لم تنقطع في مكة المكرمة حتى اليوم.

وأخيراً :

يعدّ الكتاب بانوراما شاملة استطاع المؤلف من خلالها أن يطوف بقارئه بمصادر المعرفة والثقافة في مكة المكرمة خلال حقبة الدراسة وأن يسبر أغوار تلك الحقبة بأسلوب أدبي جميل، بعيداً عن ملل السرد التاريخي، وأن يسلط الضوء على جانب مهم من ذاكرة تاريخنا الثقافي.

ويمكن الجزم بأن ما كانت عليه مكة من ازدهار ثقافي في ذلك القرن، هو امتداد لوضعها الثقافي منذ القرن الأول الهجري.. واستمر النشاط الثقافي فيها

متعاقباً عبر القرون من خلال وجود كم كبير من العلماء والأدباء، وحلقات العلم والتدريس والمدارس والمكتبات بين جنباتها.. وبالتالي فإن تراكمات ذلك الموروث الثقافي كانت هي المكون لحياتها الثقافية الحافلة في القرن التاسع عشر.

هذه الحياة الثقافية التي لا تختلف في شكلها ومسارها عما كان يسود البلدان العربية والإسلامية الأخرى.. وقد تميزت الحياة الثقافية في مكة في تلك الحقبة بأنها كانت نتاج جهد مجموعة كبيرة من العلماء المكيين أصلاً وآخرين ممن صهرتهم بيئتها، فكان المكان الذي عشقوه هو الرابط الأساس؛ توحدهم العربية لغة، والإسلام عقيدة، مما جعل من مكة منارة للعلم ومصدراً للإشعاع الثقافي.